- تقديم -

قراءة في بحوث الأستاذ عبد الحميد بورايو

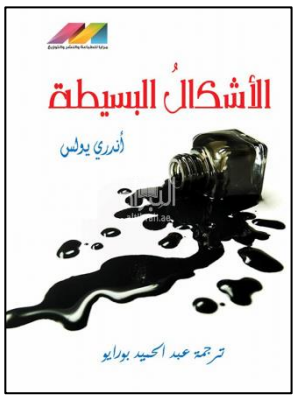
المسار العلمي للأستاذ - سنوات التكوين (الجزء الأول)

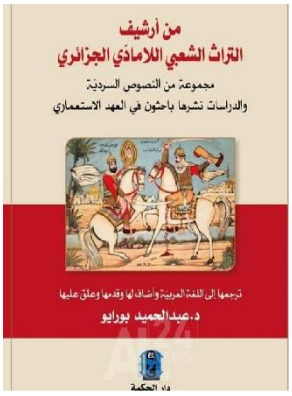
أ.د. رشيد بن مالك

جامعة تلمسان (الجزائر)

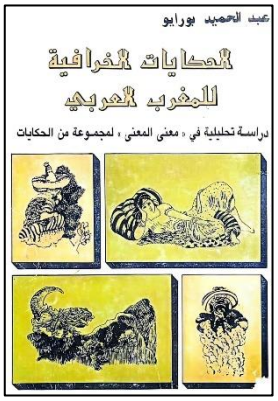
rachid.benmalek@yahoo.com

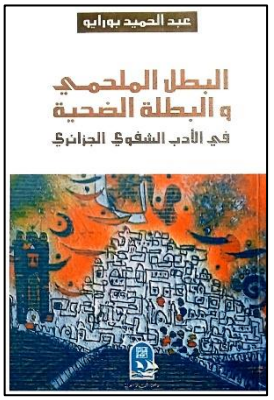


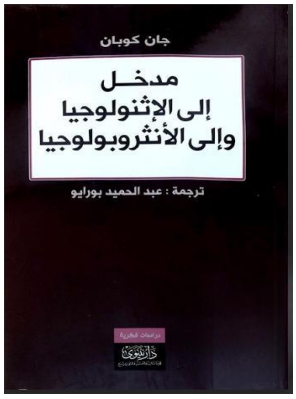


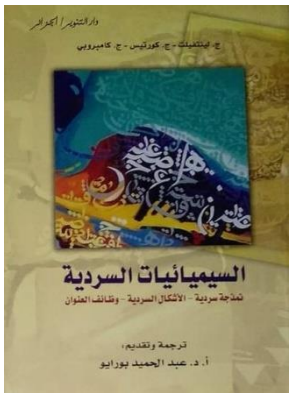


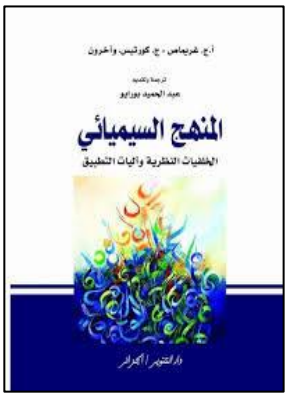


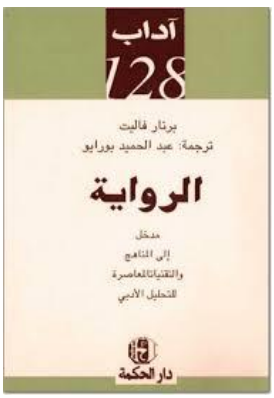


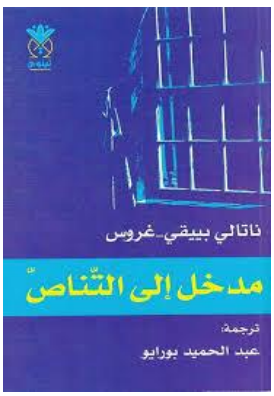












لما اقترح علي السيد مهند حلوة مدير دار كنوز المعرفة الاتصال بالأستاذ عبد الحميد بورايو وإقناعه بضرورة طبع رسالة دكتوراه دولة الموسومة بِ المسار السردي وتنظيم المحتوى/دراسة سيميائية لنماذج من حكايات ألف ليلة وليلة، لم أتردد لحظة واحدة لاعتبارات عديدة أولها: سبق لي وأن قرأت هذا البحث المتميز في نهاية التسعينيات من القرن الماضي وتساءلت مرات عديدة عن الأسباب التي تقف وراء عزوفه عن طبع هذه الدراسة الرائدة في البحث السيميائي المعاصر ولم ألق جوابا إلا بعد اتصالي به، وعرض فكرة طبع هذه البحث. لم يبد موافقته للتو لقناعته الصادرة عن تواضعه الكبير بأن الدراسة لا ترقى إلى مستوى التداول بين الباحثين، ولكنه سرعان ما أبدى موافقته المبدئية بعد أن أقنعته بأهمية هذا البحث، وبألا يحرم القارئ العربي من الإفادة من السيميائيات، ومن التمارين التطبيقية الذي هو في أمس الحاجة إليها والتي تشكل قلتها السمة البارزة في المشهد السيميائي العربي المعاصر. ثانيها: تتوخى أطروحة الباحث العلميةَ scientificité في مناقشة العديد من القضايا النظرية ذات التداعيات المباشرة على النص السردي. إن رؤيته العلمية المؤسسة تساعد القارئ العربي على إدراك مستويات التحليل السيميائي للنص السردي بسهولة، وإواليات الانتقال من مستوى إلى آخر، وهذا ما لم يراع في عدد غير قليل من البحوث العربية التي يغلب عليها التسرع في إصدار الأحكام القيمية، والخلط الموصوف بين مستويات الدراسة الذي من شأنه أن يعكس وقوع القارئ في ارْتِبَالٍ وَتَرَدُّدٍ وَاضْطِرَابٍ لا يعرف من أين يبدأ، ولا يدرك المغزى من الاشتغال على المستويات. ثالثها: إن الأدوات المنهجية التي استعان بها الباحث لفض الإشكالات التي يطرحها النص السردي صادرة أساسا عن خلفية الباحث العلمية ومفادها أن هذه الأدوات ليست غاية في حد ذاتها، بل وسيلة فقط تسمح بتنظيم العمليات العرفانية بدء من تقطيع النص إلى مقطوعات سردية، ومرورا بالمكونين السردي والخطابي، وانتهاء بالمستوى العميق الذي تضبط فيه الدورة الدلالية للنص من خلال تفعيل المربع السيميائي. لكل هذه الاعتبارات، تم الاتفاق على ضرورة طبع هذه الجوهرة النفيسة وإبلاغ مدير دار كنوز المعرفة بموافقة الأستاذ حميد على طباعة هذا البحث.

إن قارئ هذه الدراسة لا يمكن أن يستوعب مراميها المنهجية، ولا نتائجها العلمية الهامة دون الإحاطة برؤية الباحث العلمية التي لا يمكن أن يستشفها القارئ، ولا أن يمسك بأطرافها في لحظة تشكلها في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وهذا لقناعتنا بأن هذه الرؤية خضعت لعملية بناء ظهرت تباشيرها الأولى في مرحلة التعليم الابتدائيّ حيث كان ميّالا أكثر لدروس الحساب والعلوم. فلا غرابة أن تكون نتائجه في الاختبارات جيّدة في هذه الموادّ. في مرحلة الدروس المتوسّطة، والتي قضاها في ثانوية عمارة الرشيد بن عكنون (الجزائر) حيث كان التعليم المتوسّط مُدْمَجًا مع التعليم الثانويّ وفق برنامج التعليم العام لتلك الفترة، وحسب نظام هذه المؤسسة تلقّى دروس الرياضيّات والكيمياء والفيزياء على أيدي أساتذة مُعَارِينَ من سوريا، وصادف أن كان هؤلاء من أحسن المدرّسين كفاءة؛ حبّبوا له ولزملائه هذه المواد، فاجتهد أجتهد في تحصيلها، ونلتُ الامتياز في نتائجها.

وقد أعرب عن أسفه الشديد على عدم ترشّحه في مجال يُفَضِّلُه، وهو دراسة العلوم. طمأن نفسه، وأبدى ارتياحا كبيرا لبرنامج الباكالوريا الذي يُلقّن في سنتين (باكالوريا أولى، وباكالوريا ثانية)، وموادّه العلمية موجودة أيضا في الفرع الأدبي، وإنما يكون الفرق في معامل حساب النقاط فقط. وبالتالي لن يفوته في تعلّمه الإفادة من الموادّ العلميّة.

لمّا حصلتُ على الباكالوريا؛ والتحق بالمدرسة العليا للأساتذة، وضع بين خيارين؛ إمّا الأدب أو الفلسفة؛ وكان ميالا لهذه الأخيرة، نظرا لطابعها الفكري، واعتمادها على المنطق العلميّ، ورأى في هذا شيئا من التعويض عن عدم مواصلة دراسة العلوم.

هكذا لَعِبَتْ مثل هذه القناعات دورها مرّة أخرى لِتُبْعِده عن المجال العقلاني في الدراسة وتدفعه باتجاه الحقل الأدبي الذي أبدى فيه ، مرة أخرى، ميلا كبيرا للموادّ التي يَطْغَى فيها الجانب الفكريّ، مثل مواد علم الاجتماع الأدبي، وعلم النفس الأدبيّ، وكذلك اللسانيات الحديثة التي كان يدرّسها الحاج صالح عبد الرحمان، وهو من أبرز الباحثين العرب في الدرس اللساني المعاصر، إلى جانب التيارات الفكرية والفلسفيّة المؤثرة في الأدب الماثلة في بعض الموادّ المتعلّقة بمنهجيّة تحليل النصوص خاصّة. لكل هذه الاعتبارات، قرر التخصّص في الدراسات اللسانيّة الحديثة، نظرا لعلاقتها الوطيدة بنهضة العلوم في بداية القرن العشرين، وبفعل تأثّره الشديد بدروس الأستاذ الحاج صالح التي تولي أهمية كبيرة للفكر الرياضي والعلمي في دراسة اللغة سواء عند العرب أو في الغرب. وقد قَبِله الأستاذ الحاج صالح من بين الطلبة الذين سيشرف على بحوثهم بعد تخرجه في جوان من سنة 1973.

وفي الحقبة نفسها، حصل على منحة دراسيّة في الخارج، وقد تضمن تقديم طلبه اختيار روسيا أو فرنسا لتكون البلد الذي يواصل فيها دراسة اللسانيات الحديثة، غير أن عمليّة التوجيه الخرقاء المتّبعة في وزارة التعليم العالي حينئذ قضت بأن تبعث بالمعربين في المجال الأدبيّ إلى المشرق، فتمّ إرساله إلى مصر لدراسة اللسانيّات الحديثة بجامعة القاهرة. والأستاذ الوحيد المتخصّص في هذه المادة هو محمود فهمي حجازي الذي كان مُعَارًا للسودان، وغير متواجد في جامعة القاهرة. فاضطر حينذاك لتغيير الاختصاص. ولبواعث مختلفة وقع اختياره على مادّة الأدب الشعبيّ. وهو اختيار سعى من خلاله إلى تحقيق ميوله العلميّة عن طريق اختيار منهج تحليل مستمدّ من الدراسات اللسانيّة، ومتأثّر بالمنطق الرياضي، والمتمثّل في التحليل البنويّ للنصوص الأدبيّة، اعتمادا على مفهوم فلاديمير بروب في تمييزه بين العناصر الثابتة والعناصر المتغيّرة في الحكاية، تأثرا بمنهجية علوم الأحياء والنبات في عصره، وكذلك وفق تحليلات ألجيرداس جوليان غريماص السرديّة، ذات الطابع المنطقيّ، وتأويلات كلود ليفي ستراوس الأنثروبولوجية البنويّة المبنية على الدراسات الصوتيّة ونظرية رومان جاكوبسون.

لقد بذل قصارى جهده أثناء تهيّئه لدراسة المدوّنة القصصيّة التي جمعتها من الميدان في قراءة كتب كلّ من بروب، وغريماص، وليفي ستراوس، وترجمة بعض فقراتها من الفرنسيّة إلى العربيّة لاستعمالها كنصوص للاستشهاد، ووجد نفسه محتاجا لبعض المفاهيم المستمدّة من المنطق الرياضي، والتي لقيها في كتب غريماص، فقرأت بعض ما كُتِبَ من دراسات في هذا الفرع الدراسي في كتاب موجّه لطلبة قسم الفلسفة في جامعة القاهرة.

ظلّ هذا الميل للروح العلميّة يمثّل مبدأ أساسيّا في اختياراته، لمّا تناول قضايا منهجيّة تحليل النص الأدبي التي كان يطرحها في دروسه، وفي مختلف الملتقيات التي يدعى لها في الجامعات الوطنيّة، أو العربيّة، والتي ساهم في

تنظيمها بجامعة تيزي وزو، ومثلت بالنسبة له حصان طروادة الذي يمتطيه في ماخض من مغامرات بحثية في مجال الدرس الأدبيّ. وتمثّل رأيه في الدعوة إلى علمنة الدرس الأدبي، على اعتبار أن الجامعة عموما، والمؤسسة الأكاديميّة خصوصا، تقوم على المفهمة العلمية لكلّ ما تدرسه وتعالجه، وأنّ مهمّتها الأساسيّة هي فسح المجال أمام التأمّل المنطقيّ العلميّ الذي يتناول الظواهر الإنسانيّة والاجتماعيّة المختلفة.

فترة تواجد الأستاذ عبد الحميد بفرنسا

بعد مناقشة الماجستير، حصل الأستاذ عبد الحميد على منحة دراسيّة بهدف تحضير دكتوراه الدولة في فرنسا في أكتوبر 1984. قصد باريس فسجّل في آخر دفعة من النظام القديم لتحضير شهادة دكتوراه الدولة في السوربون، باريس3. كان لطلبته من تلمسان دور كبير في توجيهه للتسجيل في هذه المؤسسة لموضوع الحكاية الشعبيّة الجزائريّة باللهجة العربيّة الدارجة تحت إشراف الأستاذة "ندا طوميش". شرع في تهيئة البحث، وكان على وفاق مع الأستاذة المشرفة في المراحل الأولى من البحث، والذي تناول محوري:

1- "الوسط الذي يتداول الحكايات الشفويّة"؛ وما يتعلق بالرواة والمتلقين ووظيفة رواية الحكايات في المجتمع.

2-"مدوّنة الحكايات المدروسة"؛ وما يتعلّق بوصفها وبتصنيفها والمنهجيّة المقترحة لتحليلها، ثمّ تقديم تحليل لنماذج منها.

شجّعته الأستاذة المشرفة على التوسّع خاصّة في المحور الأوّل؛ الذي كان يعتني بصفة خاصة بالمعلومات المستقاة المستمدّة من الميدان والمتعلقة بالمجتمع القرويّ الجزائريّ بصفة خاصّة، والذي مازال يهتمّ برواية القصص، وقد وجد في هذه العناية امتدادا لطبيعة عمل المستشرقين الأجانب بالثقافة العربيّة، واعتبارهم للباحث المحلّي (من الأهالي) وسيطا لنقل المعلومة عن مجتمعه، خاصّة وأن هذه المعلومة تتعلق بالحياة اليوميّة وبالثقافة الشفويّة، وغير الموجودة في الوثائق والكتب. كان اهتمام المشرفة بهذا المحور كبيرا، ولاقى الجزء الذي كتبه عنه استحسانا من طرفها، بينما ما قدّمتُه لها حول اختياراتي المنهجيّة، والتي كانت تستمدّ خطوطها العريضة من التحليل النصي السيميائي، محلّ اعتراض أحيانا لأنّها لم تكن مقتنعة كثيرا بنجاعة السيميائيات، وخاصّة في جوانبها المنطقيّة وفي البيانات التخطيطيّة والعلاقات الرياضيّة، التي كانت ترى فيها تعاملا مع الأدب الشعبي الجزائري فيه تجريد وعناية بما هو موجود في الأدب العالمي، بينما كانت ترغب في ملاحظة ما هو خاص في هذه الحكايات وما يعبّر عن خصوصيّة المجتمع القرويّ الجزائريّ. ربط هذا الموقف بما عُرف عن حركة الاستشراق من توجّه إلى التوثيق وعدم اهتمام بتطبيق المناهج العلمية المستمدّة من علم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات على الأدب العربي، وإغراق في النظرة المركزيّة الأوروبيّة التي كانت لا ترى في الثقافة العربيّة إلاّ ما يفيدها من معلومات عن جنس بشري مختلف عن العرق الأوروبي.

لم يكن تحضير دكتوراه الدولة يتطلّب حضورا إجباريّا لملتقيات أخرى في السوربون أو في غيرها من الجامعات مثلما هو الحال مثلا بالنسبة لشهادة الدراسات العليا. أراد أن يستثمر تواجده في باريس للتكوين العلمي واللغوي عن طريق حضور بعض الملتقيات التي كانت تُنظّم في الجامعات والمعاهد، وتحديدا جمعية السيميائيات التي كان

يشرف عليها غريماس، حضر بعضها، وكانت متنوعة الاهتمامات، تعالج مجالات متعدّدة غير أدبيّة، يقدمها أفراد الجمعية أو بعض المدعوين بحضور غريماس. بدت له حين ذاك أنّها لا تعنيه مباشرة؛ لكونها لا تهتمّ بمجالات أدبية صرفة، وبدا له أنّ العناية بالحكاية الشعبيّة في هذه الملتقيات قد أخذ نصيبه في السنوات السابقة، ونُشر في الكتب، وامتدت العناية الآن إلى الفنون التشكيليّة والعمران وأشياء أخرى خارج الأدب.

قصد المدرسة العليا للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة، والتي كانت تُنظّم فيها لقاءات علمية يشرف عليها كل من جوزيف كورتيس وكلود بريمون. وجد الأول في عطلة، فحضر لقاءات الثاني، وجد فيها ضالّته من العناية بتحليل الحكايات الشعبيّة. قضى ما يُقارب السنتين في حضورها. وكان موضوع هذه اللقاءات منصبّا على حكايات ألف ليلة وليلة؛ فيما يعتمد التحليل على منهجيّة منطق السرد في النصوص السردية، من حيث توالد الأفعال، وتطور مسار الشخصيّات. انفرد بريمون بطريقته الدقيقة المعتمدة على المنطق في تتبع تطور البناء القصصي حيث استبعد الاهتمام بعلاقة محتوى القصة بالسياق الاجتماعي الذي تولّدت عنه. فاندرج تحليله ضمن خطّة تجريديّة تنبع من نفس منطق التحليل السيميائي، غير أنها تختلف عنه من حيث عدم عنايته بمستويات النص وابتعاده عن استعمال المصطلح السيميائي. وقد بدا للأستاذ عبد الحميد بورايو أنّ هذه الخطّة مغرقة في التجريد، تكتسي أهمّيّة كبيرة في جانبها التعليمي، إذ تمكّن من الرصد الدقيق لتطور بناء القصة، ولكنّها لا تبحث في الدلالة مثلما تفعل السيميائيات، كما أنّها تعزل النصّ تماما عن سياقه الاجتماعي.

تمّ قطع منحته التي حصل عليها من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في نهاية السنة الدراسية الثانية 1985-1986، بسبب الأزمة الماليّة التي حدثت في سنة 1986 زمن الشادلي بن جديد، وبُلّغ بضرورة التحاقه بمنصب عمله بجامعة تيزي وزو، مما جعله ينقطع عن متابعة بحثه لنيل الدكتوراه من السوربون، وعاد إلى الجزائر.

نشر إنجازاته العلمية لما كان مقيما بباريس في كتاب "Les contes populaires algériennes d'expression arabe"، وأعدت التسجيل في الدكتوراه بجامعة الجزائر ليتناول موضوع "المسار السردي ونظام المحتوى في نماذج من حكايات ألف ليلة وليلة"، والذي ناقشه في الجامعة المذكورة في جوان سنة 1996. وقد سعى فيه للالتزام بتطبيق المنهج السيميائي الغريماسي بشيء من الصرامة والمدرسيّة.

(يتبع)